الدرس الثاني

دعوة موسى عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٥-٨) .

قصة موسى عليه السلام في القرآن :

بعد أن أخبرنا الله سبحانه أنه يرسل رسله بلسان أقوامهم ؛ ليُبيِّنوا لهم ، وأنَّ هذه سنة من سننه في جميع مَنْ أرسلهم من النبيِّين ، قصَّ علينا بإيجاز قصَّة أحد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم إلى قومهم بلسانهم بلغتهم ليُبيِّن لهم ، هذا الرسول الكريم هو : أحد أُولي العزْم من الرُّسل ، الذي اصْطفاه الله برسالاته وبكلامه ، خصَّه من دون الرسل بأنه كلَّمه تكليمًا ، أي مباشرة : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ﴾ (البقرة:٢٥٣) ، الذي كلَّمه الله هو موسى عليه السلام .

OBEIKAN.COM

موسى عليه السلام أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن :

وموسى قد عُني القرآن الكريم بقصَّته مع فرعون وملئه ، وبقصَّته مع قومه بني إسرائيل ، ولذلك تكرَّر ذكرُ اسم موسى عليه السلام في القرآن : مائة وستًّا وثلاثين مرَّة ، فهو أكثر نبيٍّ من الأنبياء ذُكر اسمه في القرآن .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام ذُكِرَ اسمُه تسعًا وستين مرة .

وسيِّدنا نوح عليه السلام ـ شيخ المرسلين ـ ذُكِرَ اسمُه ثلاثًا وأربعين مرَّة .

وسيدنا عيسى عليه السلام ذُكر خمسًا وعشرين مرَّة ، وإن كان ذُكر أحيانًا باسم المسيح ، وباسم ابن مريم ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ (الزخرف:٥٧) .

حديث القرآن عن خاتم النَّبيِّين محمَّد ﷺ :

أما محمد ﷺ فلم يذكر باسمه إلا أربع مرَّات : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٤) .

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٤٠) .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (محمد:٢) .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح:٢٩) .

OBEIKAN.COM

هل لأنَّ أمر محمد هيِّن عند ربه؟! لا ؛ لأنَّ القرآن كلَّه عن محمد ﷺ ، فأحيانًا يُذكر باسم النبيِّ واسم الرسول : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ (الأحزاب:٦) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (الحجرات:١) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ (الحجرات:٢) ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ (الحجرات:٣) .

فالحديثُ عنه ﷺ تحت اسم : النبي ، والرسول ، ورسول الله ، وبالخطاب المباشر ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ . . . ﴾ (الضحى:١-٥) ، إلى آخر السورة ، ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ (الشرح:١-٤) .

فالقرآن خطابٌ لمحمد ، أو حديثٌ عن محمد ، وعن دعوة محمد ، وعن رسالة محمد ﷺ .

عناية القرآن بقصَّة موسى عليه السلام :

المهم أنَّ القرآن عُني بقصَّة موسى ،حتى قال بعض علماء التفسير وعلوم القرآن: كاد القرآن أن يكون كله موسى[1]. بمعنى أنه ذكر مائة وستًّا وثلاثين مرَّة ، وفي بعض الأحيان يطيل الحديث عنه ، في سورة البقرة تحدَّث عن موسى وبني إسرائيل ، وفي سورة المائدة ، وفي سورة الأعراف أطال ذكر قصته وخصوصًا بعد أن نُجِّي بنو إسرائيل من آل فرعون ، وفي سورة طه ، وسورة القصص ، وسورة الشعراء ، وفي سور كثيرة .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٩٩/١) .

OBEIKAN.COM

قضيَّة الرسل والرسالة في سورة إبراهيم :

وهنا ذكر عن موسى كلامًا موجزًا لمناسبة أنَّ الله لم يُرسل رسولاً إلا بلسان قومه لِيُبيِّن لهم ، ومَنْ يتأمَّل سورةَ إبراهيم يجدها تدور حول قضية الرسل والرسالة .

الرسل ، وأقوام الرسل الظلمة الذين وقفوا في وجه الرسل ، وقاوموهم وعاندوهم ، هذا ما نراه في هذه السورة : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ (إبراهيم:٤) ، ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:٥) ، ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (إبراهيم:١٠) ، ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ (إبراهيم:١١)، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (إبراهيم:١٣) ، ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ (إبراهيم:٤٧) ، إلى آخر السورة .

دلالة كلمة (لقد) :

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

علماء العربية يقولون : اللام هنا مُوَطِّئة للقسم ، كأنَّ الله يقسم (والله قد) . و(قد) هنا للتحقيق : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ ﴾ ، يُؤكِّد أنَّ الله أرسل موسى بما ذكره : ﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .

الآيات الدالة على صحَّة النبوة :

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ الآيات هي المُؤيِّدات الدالات على صحَّة النبوة وصدق النبيِّ ، أو ما يسميه علماء العقائد أو علماء الكلام في تراثنا : (المعجزات) . القرآن لم يجئ بهذا المُصْطَلح مطلقًا ، فكلمة المعجزات لم تَجئ

في القرآن أبدًا ، إنما جاء في القرآن : الآيات والبيِّنات ، فالله يُؤيِّد رسلَه بآياته وببيِّناته : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الحديد:٢٥) ، ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ (البقرة:٩٩) .

فالله أرسل رسله بالآيات ، أي : ما يدلُّ على صدقهم وصحَّة دعوتهم ، قد يكون ذلك بمعجزة خارقة للعادة ، مثل : قوم صالح حين قالوا : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء:١٥٤،١٥٥) ، فأخرج لهم ناقة .

ولكن أحيانًا قد تكون لهم آية ، وهي : سيرة الرسول نفسه ، سيرتُه دالَّة على صدقه ، وأنه غير كذَّاب ، وقد تكون شهادة قومه له بأنهم لم يَرَوا فيه إلا خيرًا ، ولم يسمعوا عنه إلا صدقًا . . . إلخ .

سيدنا موسى أُوتيَ تسعَ آياتٍ بيِّنات ، حينما تَحَدَّى فرعون ووقف يجادله ، قال له : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (الشعراء:٢٩-٣٣) .

سيِّدنا موسى كان آدم ، أي : أسمر ، صارت يده بيضاء من غير سوء ، أي : من غير برص أو شيء من هذا . فهذه بعض آياته ، غير آيات أخرى ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ (الإسراء:١٠١) .

رسالة موسى إلى قومه وفرعون وملئه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

هل كان موسى مرسلاً إلى قومه؟ أم إلى فرعون وملئه؟ في كثير من الآيات يذكر : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ

OBEIKAN.COM

﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴾ (هود:٩٦،٩٧) ، وفي آية أخرى : ﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴾ (غافر:٢٤) .

فظاهر الأمر أنه أُرسل إلى الاثنين معًا ، أول ما أرسله ربه : ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ (النازعات:١٧-١٩) ، وهو أيضًا مُرسل إلى قومه ، فمهمَّته تحرير قومه من سلطان فرعون وجبروت فرعون : ﴿ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ (الدخان:١٨،١٩) ، فمن ضمن رسالته إلى فرعون : أن يُحرِّر بني إسرائيل من هذه العبوديَّة التي تعبَّدهم بها فرعون : ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ (طه:٤٧) .

فهو كان مرسلاً إلى فرعون وقومه ، ومرسلاً أيضا إلى قومه بني إسرائيل ، ككلِّ الرسل الذين أُرسلوا إلى أقوامهم إلا محمدًا ﷺ ، فإنه أُرسل إلى النَّاس كافَّة ، وذكر من خصائصه الحديث المتفق عليه : « وكان النبيُّ يبعث إلى قومه خاصَّة ، وبُعثتُ إلى الناس عامَّة »[1] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨) .

الفرق بين رسَالتَيْ موسى ومحمد عليهما السلام :

﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

كما أُرسل محمد ﷺ وأُنزل عليه الكتاب : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:١) ، أُنزل إلى موسى : ﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ ﴾ ، فالفرق بين موسى ومحمد : أن الله يقول لموسى : ﴿ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ ﴾ .

---

(١) سبق تخريجه صـ(٣٢) .

OBEIKAN.COM

ومحمد قال له : ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ ﴾ . فهذه رسالةٌ محدودةٌ ، وهذه رسالة عامة ، هذه رسالة لقوم مخصوصين ، وهذه رسالة إلى العالم .

ولا زال اليهود إلى اليوم لا ينشرون رسالتَهم إلى العالم ، لا يزعُمون أنَّ عندهم رسالة عالميَّة ، رسالتهم رسالة قوميَّة ، رسالة لشعب إسرائيل ، حتى الإله عندهم يقولون : ر إسرائيل . ونحن نقول : رب العالمين . من أوَّل آية في القرآن بعد البسملة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:٢)، هم يقولون : رب إسرائيل ، ورب الجنود ، لأنهم مجتمع عسكري محارب .

التذكير بأيام الله تعالى :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ﴾

ما المراد بأيَّام الله؟ أيامُ الله هي : الأيام الجديرة أن تُنْسب إلى الله ، فلا يقال : هذا يومُ فلان إلا إذا كان هذا اليوم حَصَل فيه على شهادة كبيرة ، أو جائزة عظيمة ، أو تحقَّق له شيء رائع ، فتقول : هذا يوم فلان . فعندما تقول : يوم الله . فمعناه : أنه اليوم الذي أنزل فيه نعمًا سابغةً وباهرةً ، أو الذي أنزل فيه نقمًا على المجرمين من عباده ، فهي أيام الله ، فيمكن أن نقول : إنَّ من أيام الله : يوم أهلك قوم نوح بالطوفان ، ويوم أهلك عادًا بريح صرصر عاتية ، ويوم أهلك ثمود بالطاغية ، صيحة أخذتهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، ويوم أهلك فرعون وجندَه ، حينما انفلق بهم البحر وغرقوا جميعًا ، فأغرقناه ومَنْ معه أجمعين .

هذه كلُّها هي أيام الله ، فهي إما أن تكون أيامًا لإنزال النِّعَم أو لإنزال النِّقَم ، فكأنَّ الله تعالى يقول لموسى : ذكِّر قومك بأيام الله ، أيام نِعَم الله عليهم ، وسنأتي في الآية التالية إلى تذكيرهم ببعض النعم : ﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ .

ويُذكِّرهم بأيام نِقَم الله على أعدائهم ، كيف انتقم الله من أعدائهم ، كيف انتقم الله من فرعون الذي أذلَّهم واستعبدهم؟ ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا

OBEIKAN.COM

شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٤) ، وهذا هو القسم الأول من النِّقم .

ثم يأتي القسم الثاني ، وهو : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص:٥،٦) ، فهذه أيام الله تعالى ، كما قال مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

(غافر:٣٠-٣٣) .

حاجة الناس إلى التذكير بأيام الله :

الناس بحاجة إلى التذكير بأيام الله حتى لا تُنسى ، من طبيعة الإنسان أن ينسى ، كما قال الشاعر :

وما سُمِّي الإنسان إلا لِنَسْيِهِ ... وما القلبُ إلا أنه يَتَقلَّب

الإنسان في حاجة إلى التذكير ، والمراد بالتذكير : إزالة النسيان ، بحيث يجعل الأمر دائما حيًّا في ذاكرته لا يُمحى ولا يُنسى .

فالتذكير بالنِّعم لأهلها ، وبالنِّقم لأهلها ، والتَّذكير فيه أيضًا معنى العظة والإنذار ، ولذلك يعتبر الرسل مُذكِّرين ، النبيُّ ﷺ أُمر بالتذكير في آيات كثيرة : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ (الأعلى:٩) ، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات:٥٥) ، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية:٢١،٢٢) .

OBEIKAN.COM

فالتذكير هو منهاج النبوة ، والعلماء هم وَرَثة الأنبياء ، ومهمَّتهم أن يسيروا في طريق التَّذكير ، يُذكِّرون الناس : بأيَّام الله ، وبِنِعَم الله ، وبفَضْل الله وبهُدى الله عزَّ وجلَّ .

المستفيدون من التذكير بأيام الله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

إنَّ في هذا الإخراج من الظلمات إلى النُّور ، وفي هذا التذكير بأيام الله لآيات دالة ومُنبِّهة .

لكن لا يَتنبّه لهذه الآيات ، ولا يَسْتنير بنُور هذه الآيات ، ولا يهتدي بهُدى هذه الآيات إلا كلُّ صَبَّار شَكُور ، وهو الإنسان المؤمن ؛ لأنَّ الإيمان نصفان : نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ ، فكأنَّه يقول : إنَّ هذه الآيات للمؤمنين الصَّادقين الذين يقابلون البلاء بالصبر ، ويقابلون النَّعماء بالشكر . وهذا شأنُ الإنسان المؤمن كما جاء في الحديث الصحيح : « عَجَبًا لأمر المؤمن ؛ إنَّ أمرَهُ كلَّه له خير ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إنْ أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له ، وإنْ أصابته ضرَّاء صَبَر فكان خيرًا له »[1]. هذا شأن الإنسان المؤمن ، بين صبر وشكر ، بين سرَّاء وضرَّاء ، بين نَعْماء وبأساء .

دلالة صيغَتَي المبالغة في قوله سبحانه : ﴿ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ :

وصبَّار وشكور صيغتا مبالغة ـ كما يقول أهل اللغة ـ فهناك رجل آكل ورجل أكَّال ، الآكل يأكل مرَّة ، والأكَّال : الكثير الأكل ، والصَّبَّار الكثير الصَّبر ، والشَّكور الكثير الشكر ، فليس مُجرَّد صبره مرَّة ، أو شكره مرَّة أن يكون الأمر قد انتهى ،

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق(٧٦٩٢) ، وأحمد (١٨٩٣٤) ، عن صهيب .

OBEIKAN.COM

لا بد أن يكون الصبر خُلُقًا له ، وأن يكون الشكر خُلُقًا له ، فهو دائمُ الصَّبر دائمُ الشكر .

سِرُّ تَقْديم الصَّبْر على الشكر :

لكن لماذا قدَّم الصبر على الشكر؟ مع أنَّ نِعَم الله سابغة : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان:٢٠) ، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم:٣٤) .

القرآن يريد أن يُوطِّن المسلم نفسه على تحمُّل البلاء ، لأنَّ البلاء بالمرصاد للإنسان بصفته إنسانًا ، يعني مُجرَّد كونه إنسانًا ، أصبح مهيَّئًا لنزول البلاء به : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ (البلد:٤) ، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان:٢) ، فحياتُه قائمةٌ على الابتلاء ، وبصفته من أهل هذه الدنيا ، فالدنيا دار ابتلاء من أوَّلها كما قال عليٌّ رضي الله عنه : ماذا أصف لك من دار مَنْ صحَّ فيها سقم ، ومَنْ أمن فيها ندم ، ومَنْ افتقر فيها حزن ، ومَنْ استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها العقاب ، ومتشابهها العتاب[1].

وكما قال الشاعر :

جُبلت على كَدَر وأنت تريدها ... صفوًا من الآلام والأكدار

ومُكلِّف الأيام ضدَّ طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار[2]

هذه أيَّام الدنيا لا تَتَطَّلب أن تكون سعادةً مستمرةً ، أو صفاءً مستمرًّا ، فصفاؤها مَشُوب بالكدر ، وسعادتها مَشُوبة بالشقاء ، وسرورها مَشُوب بالحزن ، وهذه طبيعة الدنيا .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣٧٢/٤) .

(٢) من شعر : أبي الحسن التهامي ، يرثي ولده .

تعرُّض أصحاب الرسالات للبلاء :

وأصحاب الرسالات أكثر تعرُّضًا للبلاء من غيرهم ؛ لأنَّ الله الذي خلق آدم ، خلقه ومعه إبليس ، وخلق إبراهيم ومعه نمرود ، وخلق موسى ومعه فرعون ، وخلق محمدًا ومعه أبو لهب وأبو جهل ، فالحقُّ يصارعه الباطل دائمًا ، فمَن يحمل رسالة الحقِّ لا بد أن يُعَاديَه أهل الباطل ، ومَنْ دعا إلى الصلاح حاربه أهل الفساد ، مَنْ دعا إلى الخير قاومه دعاةُ الشَّر ، ولذلك لمَّا سُئل النبيُّ ﷺ : أيُّ الناس أشدُّ بلاء؟

قال : « الأنبياء ، ثم الصَّالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زِيد في بلائه ، وإنْ كان في دينه رقَّة خُفِّف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة »[1]. يكفر عنه سيئاته بما ينزل به من بلاء .

« ما يصيب المسلم من نَصَب[2]، ولا وَصَب[3]، ولا همٍّ ، ولا حَزَن ، ولا أذى ، ولا غمٍّ ، حتى الشوكةِ يشاكها ، إلا كفَّر الله بها من خطاياه »[4].

والقرآن يخاطب المؤمنين طالبًا منهم أن يحملوا دعوة محمد ، وأن يصبروا على ما يصيبهم في طريقها من بلاء وبأساء : ﴿ **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ** ﴾ (العنكبوت:٢،٣) .

---

(١) رواه أحمد (١٤٨١) وقال مخرجوه : إسناده حسن ، والترمذي في الزهد(٢٣٩٨) وقال : حسن صحيح ، والنسائي في الكبرى كتاب الطب(٧٤٨١) ، عن سعد بن أبي وقاص .

(٢) النَصَب : التعب والمشقة والكد . تاج العروس مادة (نصب) .

(٣) الوَصَب : دَوام الوَجَع ولُزومُه ، وقد يُطْلق الوَصَبُ على التَّعَب ، والفُتُور في البَدَن . النهاية في غريب الحديث مادة (وصب) .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في المرضى (٥٦٤١) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣) ، كما رواه أحمد (٨٠٢٧) عن أبي هريرة .

وهذا سرُّ تقديم الصَّبَّار على الشَّكور : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، وقد تكرَّرت هذه العبارة في القرآن أربع مرات في مناسبات شتى[1].

التَّذكير بالنِّعم أصل من أصول الرسالات :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾

ومن التَّذكير بأيام الله : أن يذكِّرهم بِنِعَمِ الله تعالى عليهم ، حتى لا ينسوها . والتذكير بالنِّعم أصلٌ من أصول الرسالات السماويَّة كلها .

شكر المنعم من أوَّل الواجبات على الإنسان من حيث هو إنسان ، اللهُ هو الذي هيَّأ لك هذا الكون كلَّه ، وسخَّر لك كل ما في الكون ، جعله جميعًا في خدمتك ، فالشمس تضيء لك ، والقمر ينير لك ، والنجوم تهديك ، والبحار تسقيك ، والأرض ذلول لك ، كل شيء في الكون مُسخَّر لك ، فنعم الله كثيرة ، ولكن الإنسان ينسى نعم الله .

ومن أعظم نِعَمِ الله على الإنسان : أنه أرسلَ الرُّسلَ إليه مُبشِّرين ومُنْذِرين يهدونه إلى الله وإلى طريق الله وإلى الجنة .

فالتذكير بالنِّعم أصْلٌ من الأصول ، لذا يذكِّر القرآن المؤمنين بالنِّعم : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (آل عمران:١٠٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (المائدة:١١) .

---

(١) في سورة إبراهيم (٥) ، وفي سورة لقمان (٣١) ، وفي سورة سبأ(١٩) ، وفي سورة الشورى(٣٣) .

OBEIKAN.COM

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب:٩) .

آياتٌ كثيرةٌ في القرآن تُذكِّر المسلمَ بِنِعَمِ الله ، وهذا أصْلٌ مهمٌّ جدًّا ؛ أن يذكر الناس نعمة الله تعالى عليهم .

نسيان أكثر الناس نِعَم الله عليهم :

للأسف كثيرٌ من الناس ينسى نعمة الله ، يذكر البليَّة إذا نزلت به ، بليَّة واحدة يظلُّ يذكرها ليلاً ونهارًا ، وآلاف النعم يَتَغافل عنها ، فمن المهم ذكر النِّعم ، ولذلك سيدنا موسى عليه السلام يُؤَصِّل هذا الأصل حينما يقول لقومه : ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، لا تنسوا ما كنتم فيه من ذلٍّ واستعباد ، ظَلِلْتم قرونًا وأنتم عبيدٌ عند فرعون وقومه .

النجاة من فرعون ملك مصر :

﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [1]

فرعون هو لقب لملك مصر ، وقد كان لكلِّ ملك من الملوك تسمية في هذا الوقت ، فهناك كسرى ملك الفرس ، وقَيْصر ملك الروم ، والنَّجاشي ملك الحَبشة ، وتُبَّع ملك اليمن . . . إلى آخره .

وفرعون ملك مصر من المصريين ، إنما الغزاة لا يُسمَّى ملكهم فرعون ، مثل ملك مصر وحاكمها أيام سيدنا يوسف ، فالقرآن لم يعبِّر عن حاكم مصر بفرعون

---

(١) آل فرعون : أتباعه وأصحابه ومعاونوه على الشر . وفي أكثر الآيات لا يذكر القرآن فرعون وحده ، إنما يذكر ملأه أو آله ، مما يدل على إثم المؤازرين له ، وهذا ينبئ بأن الطغاة لا يطغون بذات أنفسهم ، ولكن بمؤازرة من الأشياع والأتباع .

OBEIKAN.COM

وإنه بالملك: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ (يوسف:٤٣) ، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ (يوسف:٥٤) .

السرُّ في تسمية العزيز بالملك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾ ولم يقل : ﴿ فرعون ﴾ ، على خلاف التَّوراة التي كانت تُسمِّيه فرعونًا؟! لأنه لم يكن فرعونًا ، فلم يكن من الأُسر الفرعونيَّة التي حكمت مصر ، إنما كان من ملوك الرعاة أو العمالقة أو الهكسوس ، الذين غَزَوا مصر من الجزيرة العربية ، وحكموا أهلها عدَّة قرون ، إلى أن تجمَّع المصريون تحت قيادة قائد اسمه (أحْمُس) لحرب الهُكْسوس ، وحَرَّر مصر منهم ، كما هو معروف في التاريخ المصري .

ولذلك حاكم مصر في أيام سيدنا يوسف لم يكن فرعونًا ، ولم يكن مصريًا ، هو من الذين حكموا مصر من الخارج . وذلك من دقَّة القرآن ، وأنه حقًّا مُنزَّل من لدن حكيم خبير ، الذي يعلم السرَّ في السماوات والأرض .

سبب اضْطهاد بني إسرائيل :

تغيَّر الوضع في عهد سيِّدنا موسى ، طُرِدَ الهكسوس أو العمالقة أو الرعاة ، وحكمت الفراعنة مصر من جديد ، أسرة من أسر الفراعنة حكمت مصر في ذلك الوقت ، واضْطهدوا بني إسرائيل .

لماذا اضْطهدوا بني إسرائيل؟ البعض يقول : هذا أمرٌ سياسيٌّ لأنَّ بني إسرائيل لم يساهموا معهم في حربهم ضدَّ الهكسوس ؛ لأنَّ الهكسوس كان لهم منهم مواقف قديمة من عهد سيدنا يوسف ، فيبدو أنهم لم يساهموا في حرب الهكسوس ، فأخذها عليهم المصريون .

والبعض الآخر يقول : إنَّ فرعون رأى رؤيا .

OBEIKAN.COM

وقول آخر يقول : إنَّ الكَهَنة هم الذين قالوا له : إنَّ غلامًا من بني إسرائيل سيشب ويكبُر ويزيل مُلْكَك على يديه . فقال : نقتِّل هؤلاء الذكور ولا نُبقي منهم أحدًا . فهذا سرُّ العزمة الفرعونيَّة على تذبيح الذكور من بني إسرائيل واسْتحياء النساء ، وهذه كانت القاعدة .

الله سبحانه أنجى موسى عليه السلام ، بآية من الآيات ، ومعجزة من المعجزات ، ونجَّاه إلى أين؟ نجَّاه الله ليعيش في قصر فرعون ، يعني يُربِّي فرعون مَنْ يزول ملكه على يديه ، كأنَّ القدر يسخر منه ، يقول له : افعل ما تفعل ، وما أردناه سينفذ رُغْم أنفك .

سوء العذاب :

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾

الأعمال الشاقَّة والأعمال المُزْرية التي يتأفَّف منها المصريُّون ، ويأنفوا أن يقوموا بها ؛ يُكلِّفون بني إسرائيل بها ، بتنظيف المراحيض ، وحمل الحجارة ، وغير ذلك من الأعمال الشاقة المهينة .

يَسُومونهم سُوءَ العذاب : يُكلِّفونهم بأشدِّ الأعمال وأسوئها .

سوء العذاب : العذاب هو الألم ، فهم يُكلِّفونهم الأشياء المُؤْلمة والثقيلة والمتعبة والشاقَّة ، كلها يُكلَّف بها بنو إسرائيل .

السرُّ في إضافة الواو في قوله تعالى : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ :

﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾

في هذه السُّورة أضاف (واو) العطف في قوله : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ ، وفي سورة البقرة قال : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ (البقرة:٤٩) ، يذبِّحون

OBEIKAN.COM

هنا ـ في سورة البقرة ـ للتفسير أو للبدل يعني : ما هو سوء العذاب ؟ هو تذبيح الأبناء واستحياء النساء .

الفرق بين التقتيل والتذبيح :

في سورة الأعراف : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ (الأعراف:١٤١)، فأحيانًا يُعبَّر عن سوء العذاب بالتقتيل وأحيانًا يعبَّر عنه بالتذبيح .

التَّقتيل : هو إزهاقُ روحِ الإنسان بأيِّ آلةٍ من الآلات ، أما التَّذبيح فهو : تقطيع الرقاب . فهم أحيانًا يُقطِّعون الرقاب ، وأحيانًا يقتلون بآلاتٍ أخرى .

والتعبير القرآني يقول : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ ، و﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ ولم يقل : (يَذْبحون) و(يقتلون) لأنَّ هذا يدلُّ على التكثير ، ومعنى ذلك أنها مجازر ، يُذبِّحون ويُقتِّلون .

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ في آية البقرة والأعراف فسّر هذا السُّوء بأنه : التذبيح أو التقتيل للأبناء واستبقاء النِّساء أحياء .

وفي هذه الآية عطف ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ ، يعني جعل هذا أمرًا آخر ، فهم كانوا يُكلِّفونهم بالأعمال الشاقَّة ، ويُذبِّحون أبناءَهُم ، فأضافت هنا معنىً جديدًا ، يعنى غير الأعمال الشاقَّة والمُزْرية والمُذلَّة التي كَلَّفوهم بها ، ذبَّحوا أبناءهم واستحيوا نساءَهُم[1].

والأبناء : الأولاد الذكور ، واستَحْيوا نساءَهُم ، أي : أبقوهم على قَيْد الحياة للخدمة والمُتعة ، فالنساء كانت تعمل خادماتٍ عندهم ، وهذا أشدُّ من القتل ،

---

(١) قال الفيروزآبادى في لطائف الكتاب العزيز (١٤٢/١) : قوله : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ (البقرة:٤٩) ، بغير واو على البدل من ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ ، ومثله فى الأعراف : ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ ، وفى إبراهيم : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ بالواو ؛ لأن ما فى هذه السورة ـ البقرة ـ والأعراف من كلام الله تعالى ، فلم يرد تعداد المِحَن عليهم ، والذى فى سورة إبراهيم من كلام موسى ، فعدّد المِحَن عليهم ، وكان مأمورًا بذلك فى قوله : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ .

OBEIKAN.COM

فالإنسانُ الكريم يعدُّ استبقاء ابنته وامرأته عند عدوِّه لتخدمه أشدَّ عليه من القتل والذبح .

مرجع الضمير في قوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ :

﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

هل معنى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم ﴾ الإنجاء ، فيكون البلاء هنا نعمة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥)، أو يكون معنى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم ﴾ أي : في تقتيل الأبناء واستحياء النساء ، بلاءٌ من ربِّكم عظيم ، بلاءٌ شديد ومحنةٌ عظيمة . وأيّ محنة أعظم من هذه؟!

ربكم هو الذي فعل هذا ؛ ليُؤدِّبكم لأنكم خرجتم على دين التوحيد ، واتَّبعتم ملَّة الآخرين ، تركتُم ملَّة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، واتَّبعتُم ملَّة المصريين ، وعبدتم معهم الأصنام ، وانحرفتم عن دين التوحيد الذي جاء به أنبياؤكم من قبل .

إعلام موسى قومه بسُنَّة إلهيَّة :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

لا زال سيِّدنا موسى يخاطبهم ، ويقول لهم : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ ، من الإذن والإعلام ، كما قال سبحانه في آية أخرى عن بني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأعراف:١٦٧) ، أي : أعلمكم ربُّكم بهذه الحقيقة ، بهذه السُّنَّة ، بهذا القانون الإلهيّ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ .

الإنسان بين الشكر والكفر :

لأنَّ الإنسان بين شكر وكفر ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:٣) ، والشكر له ثوابُه ، والكفر له عقابُه ، شكر النعمة والكفر بالنعمة لا يُتْرك ، لكنَّ الله من سُنَّته الثوابُ والعقابُ في الدنيا وفي الآخرة ، وهنا هذا الثواب في الدنيا : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

والشكر والزياده عليه متعلِّق بالنعمة ، فكلُّ نعمة يقابلها شكرٌ أو كفرٌ ، فالحديث هنا عن النِّعم ، وهو يذكِّرهم بنعم الله : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، ثم يُبيِّن لهم هذا القانون .

قوانين قرآنيَّة :

هناك قوانين قرآنية مثل القوانين الطبيعيَّة : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد:٧) ، هذا قانونٌ قرآنيٌّ .

وهناك : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق:٢) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١) ، هذه قوانين قرآنيَّة .

معنى الشكر وعناصره :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

ما معنى الشكر؟ الشكر معنى مُركَّب من عدَّة عناصر ، بعضه يتعلق بالقلب ، وبعضه يتعلق باللسان ، وبعضه يتعلق بالجوارح .

OBEIKAN.COM

شكر القلب :

أما ما يتعلَّق بالقلب : فأن تعترف بأنَّ الله تعالى هو المنعم ، فالنِّعم كلُّها من عنده : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ (النحل:٥٣) .

لا بد أن يعترف القلب بهذا ، فليس من المعقول أن يُقدِّم لك أحدٌ خدمة ولا تشكره ، كما جاء في الحديث : « لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس »[١] . ولكن لا بد أن تعلم أنَّ الذي رقَّق قلبه لك ، ويسَّره ليخدمَكَ هو الله ، فلا تنسى صاحبَ الفضل الأول .

فالأمر الأول : أن تعترف بأنَّ الله هو صاحب النعم كلِّها . هذا ما يتعلق بالقلب .

شكر اللسان :

الأمر الآخر : ما يتعلَّق باللسان ، فتقول : الحمد لله . تشكر بلسانك ، وتحمد الله به كما قال الشاعر :

لك الحمد مولانا على كلِّ نعمة ومن جملة النَّعماء : قولي لك الحمد

يعنى : أحمدك على كلِّ ما أنعمت به عليَّ ، ومن جملة هذه النِّعَم : أنْ وفَّقتني لأنْ أقولَ لك : الحمد لله . فهذه نعمةٌ جديدةٌ ، كما قال الشاعر :

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً عليَّ له في مثلها يجبُ الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر[٢]

---

(١) رواه أحمد (٧٩٣٩) وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وأبو داود في الأدب (٤٨١١) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤) وقال : حديث صحيح ، وصحح الألباني إسناده على شرط مسلم ، السلسلة الصحيحة (٤١٦) ، عن أبي هريرة .

(٢) من شعر : محمود الوراق .

OBEIKAN.COM

مهما قلتَ لن تستطيع أن توفيَ الله تعالى حقَّه من الشكر ، لأنك إذا شكرتَ الله هذه نعمة جديدة تحتاج شكرًا جديدًا ، فلن ينتهي الشكر أبدًا ، لن تستطيع أن تعطي الله تعالى حقَّه من الشكر .

حَمْدُ الله سبحانه على نِعَمه :

الشكر باللسان تقول : الحمد لله .

الإسلام علَّمنا إذا أكلنا وشبعنا أن نحمد لله[1].

إذا ركبنا الدابة أو السيارة أن نقول : الحمد لله ، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف:١٣،١٤)[2].

تستيقظ من نومك تقول : «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[3]. كل هذا يُعلِّمك الحمْد .

كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحبُّ قال : «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» ، وإذا رأى ما يكره قال : «الحمدُ لله على كلِّ حال»[4]، أي : إذا كان الأمر يكرهه يقول : الحمد لله . لذلك نقول : الحمدُ لله ، الذي لا يحمد على مكروه سواه .

ربُّنا وحده هو الذي يُحمد على المكروه ، لأنَّ المكروه قد يكون وراءه خير وأنت لا تدري : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا

---

(١) إشارة إلى الحديث : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤) ، عن أنس بن مالك .

(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢) عن ابن عمر .

(٣) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢) ، عن حذيفة .

(٤) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣) ، والطبراني في الأوسط (٦٩٩٩) ، والحاكم في الدعاء (٤٩٩/١) ، وصحح إسناده على شرطهما ، وسكت عنه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠) ، عن عائشة .

OBEIKAN.COM

﴿ وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢١٦) ، ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:١٩) .

ورُبَّ ضارة نافعة ، وكم من منحةٍ في طيِّ محنة . فقل : الحمد الله دائمًا . من الشكر المطلوب : أن تقول ذلك دائمًا ، أن تُعوِّد لسانك على الحمد لله .

شكر الجوارح :

والأمر الثالث : شكر الجوارح . فالبدنُ كلُّه يجب أن يشكر الله باستعمال النِّعَم فيما يُرْضي الله عزَّ وجلَّ ، فيما يُحبُّ الله لا فيما يكره ، فيما يَرضى عنه لا فيما يَسْخَط الله عليه .

لا يجوز أن تُسخِّر نِعَمَ الله في معصية الله ، كثيرٌ من الناس لم يعرفوا قدْر النِّعم التي منّ الله عليهم بها ، فاستخدموها في معصية الله ، فمثلاً الله أعطاه هذا الهاتف ، فبدلاً من أن يستخدمه البعض في قضاء المصالح ، يستخدمه في معاكسة الفتيات أو النساء في بيوتهنَّ ، فيقلب النعمة إلى نقمة ، والعياذ بالله عزَّ وجلَّ .

خلق الله له العقل الذكيَّ ليستخدم ذكاءه فيما يُصْلح نفسه ، ويُصلح أسرته ويُصلح أمته ، فتجده يستخدم هذا الذكاء في الإفساد ! فلم يصبح هذا العقل آلة خير ، بل أصبح آلة شر لإشاعة الفساد في المجتمع .

ومثل ذلك : العلم الحديث الآن ، اللهُ سبحانه سخَّر للناس العلم ، العلم الطبيعي ، العلم الكوني : الفيزياء ، والكيمياء ، والرياضة ، والفلك ، وعلم الذرَّة ، والثورات العلميَّة التي نعرفها كلها : الثورة الجيولوجية ، والإلكترونية ، والفضائية . . . إلخ .

الإنسان ـ للأسف ـ بدل أن يستخدم هذه القُوى التي هيَّأها الله له ، وهذه النعم العظيمة فيما ينفع البشرية ، استخدمها فيما يضُرُّ البشرية وفيما يفسد البشرية ، فمثلاً أمريكا آتاها ربُّنا قارَّةً بِكْرًا ، فيها من الخيرات ما يكفي أضعاف أهل أمريكا ، ثم انظر إلى الصين : ألف ومائتي مليون آخذين قطعة صغيرة من آسيا .

OBEIKAN.COM

حتى قال (ماوتسي تونج) : نحن ندعو إلى إعادة توزيع البشر على الكرة الأرضيَّة من جديد ، فغير معقول أنَّ الأمريكان يأخذوا قارة وحدهم والكنديين ، والناس في بنجلادش مائة وسبعين مليون ، لو تنظر إليها على الخريطة تجدها بلدًا صغيرًا جدًّا ، ومصاب بالفيضانات ، فتأتي فتقتلع زروعه ، وتُدمِّر عليه أموره .

هؤلاء آتاهم ربنا هذه القارة ، وآتاهم العلم ، وآتاهم التكنولوجيا ، وآتاهم . . . وآتاهم . . . لكنهم لم يستخدموا هذا في مصالح الخلق ، وفي إعمار الكون ، وإنما استخدموه في تدمير الأقاليم ، وفي إذلال الشعوب ، في الطغيان على خلق الله ، في التألُّه في الأرض ، كما قال تعالى عن قوم عاد : ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** ﴾ (فصلت:١٥)؟ هكذا أمريكا قالت : مَنْ أشدُّ منا قوة؟ ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾ (فصلت:١٥) ، هم تألَّهوا في الأرض .

من خصائص الألوهية : أن الله سبحانه قال عن ذاته المقدَّسة : ﴿ **لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ** ﴾ (الأنبياء:٢٣) ، أمريكا لا تُسأل عما تفعل ، ولا تُحَاسَب على ما تقول ، تفعل ما تشاء ، تغزو أي بلد ، هكذا هي متألِّهة في الأرض .

هذا هو الكفر بالنِّعم ، أما الشكر : أن تستخدم النعمة فيما خُلقت له ، فيما تصلح به الحياة ، فيما يصلح به الإنسان ، فيما ينهض بالبشريَّة ، فيما يرقى بها ، فيما يجعل يومَها خيرًا من أمسها ، ويجعل غَدها خيرًا من يومَها ، هذا هو الشكر ، والكفر عكس ذلك ، وهو أن تستخدمَ النعمة ضدَّ ما خُلقت له ، وضدَّ ما يريده الله منها وما يحب الله منها .

قانون : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ :

والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ ، أزيد النِّعم وأُوسِّعها عليكم وأُدرُّها ، فتستمرُّ هذه النِّعم ، فهذا هو القانون في الشقِّ الأول : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ .

واللام هنا في قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ مُوطِّئة للقسم ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾، ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ كأنَّ الله تعالى يقسم ويُؤكِّد على أنَّ هذا القانون الإلهي قانون لا يُخْرَم ، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ ، بنعمتي ولم تؤدُّوا حقَّها ، ووضعتموها في غير مَوْضعها ، وجعلتموها في الإفساد بدل الإصلاح ، وفي الشرِّ بدل الخير ، وفي إبطال الحقِّ وإحقاق الباطل ، قلبتم النِّعم إلى أدوات في يد إبليس ، بَدَلَ أن تكون وسائل يرضى عن آثارها الرحمن ، أصبحت وسائل يرضى عنها الشيطان .

عقاب كفران المنعم :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ، عذابٌ في الدنيا قبل عذاب الآخرة ، اللهُ تعالى يُعاقب من كَفَر بنعمته ، كما قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل:١١٢) .

سَلْبُ نِعْمَتَي الأمن والغِنى :

أعظم ما تطلبه المجتمعات لِتَسعدَ في حياتها أمران : الأمن والاطمئنان ، والرَّغَد والسَّعَة في العيش ، الكفاية والأمن ، كما امتنَّ الله على قريش بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ (قريش:٣،٤).

شرُّ ما يُصَاب به المجتمع هو : الجوع والخوف ، الذي يُبتلى بهذين الأمرين ـ كما هو الشأن في كثير من بلادنا العربية والإسلامية ـ ابتُلي بلاء عظيما .

إنَّ مجتمعاتِنا مبتلاة بالجوع والخوف ، أكبر نسبة من البطالة ، وأكبر نسبة من الفقر ، وأكبر نسبة من الجائعين ، ممَّن يعانون من أمراض سُوء التَّغذية ، وممَّن يموتون من هذه الأمراض ، في بلادنا العربية والإسلامية .

انظر إلى الهياكل العظميَّة التي نراها على شاشات التليفزيون في السِّنغال وفي الصُّومال ، وفي إفريقيا ، هياكل ، فهم لا يجدون ما يأكلون ، لا يجدون القوت .

بلادنا مصابة بهذا البلاء : (الجوع أو الخوف) ، وأحيانًا يبتلوا بالاثنين معًا بالجوع والخوف .

من حقِّ الناس أن يخافوا ، الواحد يدخل بيتَه لا يدري ربما جاءه مَنْ يأخذه إلى حيث لا يشعر إلى مكان وراءَ الشمس ، مثل إخواننا في العراق الآن ، يُخطف أحدهم من بيته ، ولا يُعرف أين ذهب ، ولا مَنْ أخذه؟ ولا يعرفون له جثّة ، وأحيانًا يجدون جثته في خربة من الخرائب ، أو في طريق من الطرقات ، هذا هو حال مَنْ فَقَدَ الأمن .

الأمنُ شيءٌ عظيم ، لذا من خصائص الجنَّة أنها دار أمن ودار سلام : ﴿ **ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ** ﴾ (الحجر:٤٦) .

سيِّدنا يوسف لمَّا استقبل أبويه وإخوته قال لهم : ﴿ **ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ** ﴾ (يوسف:٩٩) ، فالأمنُ أهم ما يطلبه الإنسان ، فإذا كان معه سَعَة العيش ورَغَده ، كانا نعمتان من أعظم ما يُؤْتاه الإنسان ، فَمَنْ كفر بنعمة الله سُلِبَ هذين الأمرين .

نتيجة الإعراض عن سُنَن الله وشرعه :

﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ** ﴾ (النحل:١١٢) . بعد رَغَد العيش ، أصيبت بالجوع ، بعد أن كانت آمنةً مطمئنةً ، أصيبت بالخوف ، ولم يكن هذا ظلمًا من الله لهم ، ولكن بما كانوا يصنعون : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ** ﴾ (يونس:٤٤) ، ﴿ **ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ** ﴾ (آل عمران:١٨٢) .

ذكر لنا القرآن من قصص الكفر بنعمة الله في أكثر من سورة ، كما ذكر في قصة سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ ما هي هذه الآية؟ ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا ﴾ (سبأ:١٥،١٦) . أعرضوا عن هداية الله ، أعرضوا عن منهج الله ، أعرضوا عن سُنن الله ، حتى لم يهتمُّوا بأمر الزراعة ، وأمر السدود ، وأمر السَّقْي والحَرْث ، بل أفسدوا ، وعاشوا في ترف ككثير من الناس حينما تتَّسع عليهم النعم ينسون حقَّ هذه النعم ، النعم يجب أن تصونها ، وتصونُها ليس بأن تقول : يا ربِّ صُنْها ، لا ، لا بد أن تعمل على صيانتها .

كان عند هؤلاء القوم سدٌّ يُسمَّى : سدّ مأرب . فأهملوا أمر السدِّ ؛ فكانت النتيجة أن جاء سَيْل العرم ، ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (سبأ:١٦) ، كفروا بالنعم : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (سبأ:١٧) ، مَنْ يكفر بالنعمة ينزل به عذابُ الله ، يُعجِّل الله له العذاب إذا أهمل سُنَنَ الله ، أو أهمل شَرعَ الله ، فإذا أهملهما معًا كانت المصيبة مصيبتين : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (سبأ:١٧) .

هذا القانونُ الربّانيّ الذي ذكَره سيدنا موسى لقومه ، وذكره القرآن بهذه الصيغة ، وحينما يذكر القرآن مثل هذه الصِّيَغ ، يخصُّنا بالحديث أيضًا من ناحية أخرى ، لأنَّ مثل هذه القوانين الإلهيَّة لا تنسخ ، القوانين هي هي ، لأنَّ ربَّنا سيُجازي الشكور من بني إسرائيل بالزيادة ، وسيُجازي أيضًا الشكور عندنا ـ يعني عند المسلمين ـ هذه قوانين تُمثِّل عَدْلَ الله في الأرض ، هي ثابتة غير منسوخة ، وكما قال الأصوليون : شرعُ مَنْ قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد عندنا ناسخ له . ولم يرد في ديننا ما ينسخ هذا ، لذا يُخاطَب به المسلمون ، ويُخاطَب به غير المسلمين : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧) .

الله سبحانه أنعم على أهل الخليج بالبترول ، وسَّع عليهم من رزقه ، وأفاء عليهم من فضله ، بعض الناس عَرَف هذا الأمر ، وعَرف لله حقَّه ، وعَرف للمال حقَّه ، وعرف للفقراء حقَّهم ، وأدَّى الزكاة وغير الزكاة .

وبعض الناس يظنُّ أنَّ هذا المال دائم له هو ، وأنه يستحقُّه ، يقول كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص:٧٨) ، أنا بجهدي وخبرتي ، وبمهارتي وبذكائي جَمَعتُ هذا المال ، أنا أحقُّ به .

هل البترول الذي ظهر تحت الأرض ، هل ظهر بذكائنا وبمهارتنا؟ لا ، بل ظهر بذكاء ومهارة الخبراء الأجانب ! الخبراء هم الذين اكتشفوا ، ونحن استفدنا منهم ، فالله هو الذي سخَّر لنا هذا ، فعلينا أن نشكر نِعَمَ الله عزَّ وجلَّ ، حتى يزيدَ الله لنا من فَضْله وحتى يثبِّت الله هذه النِّعم :

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها ... فإنَّ المعاصي تُزيل النِّعم

وداوِمْ عليها بشُكرِ الإله ... فَرَبُّ العبادِ سريعُ النِّقم[1]

الله سبحانه غنيٌّ حميدٌ :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

لا تظنُّوا أنَّ الله حين يطلب منكم أن تشكروا نِعَمه ، وأن تسيروا على منهاجه ، وأن تتَّقوه ، وأن تُؤدُّوا إليه حقَّه ، أنَّ الله في حاجة إليكم؟! لا ، الله هو الغنيُّ عن كلِّ الناس ، وكلُّ من عَدَاه وما عَدَاه محتاجٌ إليه ، نحن لا وجود لنا من ذاتنا ، ولا قدرة لنا من ذاتنا ، نحن كنا عدمًا فأصبحنا شيئًا مذكورًا : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان:١) ؟ فنحن لم نكن شيئًا مذكورًا ، مَن الذي جَعَلنا شيئًا مذكورًا ؟ من الذي وَهَب لنا الحياة ؟ اللهُ ، هو الذي

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

OBEIKAN.COM

خلقنا من عدم ، هو الذي سخَّر لنا النعم ، هو الله ، فينبغي أن نعلم أننا جميعًا محتاجون إلى الله ، فقراء إليه ، والله سبحانه غنيٌّ عنا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (فاطر:١٥-١٧) .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أنَّ أوَّلكم وآخركُم ، وإنسكُم وجنَّكم : كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا .

يا عبادي ، لو أن أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنَّكم : كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا »[1]

الله سبحانه هو الغنيُّ عن طاعة المطيعين ، لا تنفعه طاعة مَن أطاع ، ولا تضرُّه معصية مَن عصى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت:٤٦) ، ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:٤٠) .

وكما قال سيدنا سليمان حينما جاءه عرش بلقيس ، جاءه من اليمن في لمح البصر : ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:٤٠) ، يعني يختبرني أعرف حقَّ هذه النعمة فأشكر ، أم لا أعرفها فأكفر بنعمة الله؟ ليبلوني ويختبرني أأشكر أم أكفر؟ ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ .

* * *

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧) ، وأحمد (٢١٣٦٧) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥) ، عن أبي ذر .

OBEIKAN.COM